منارات
manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5370) السنة العشرون - الاربعاء (15) شباط 2023

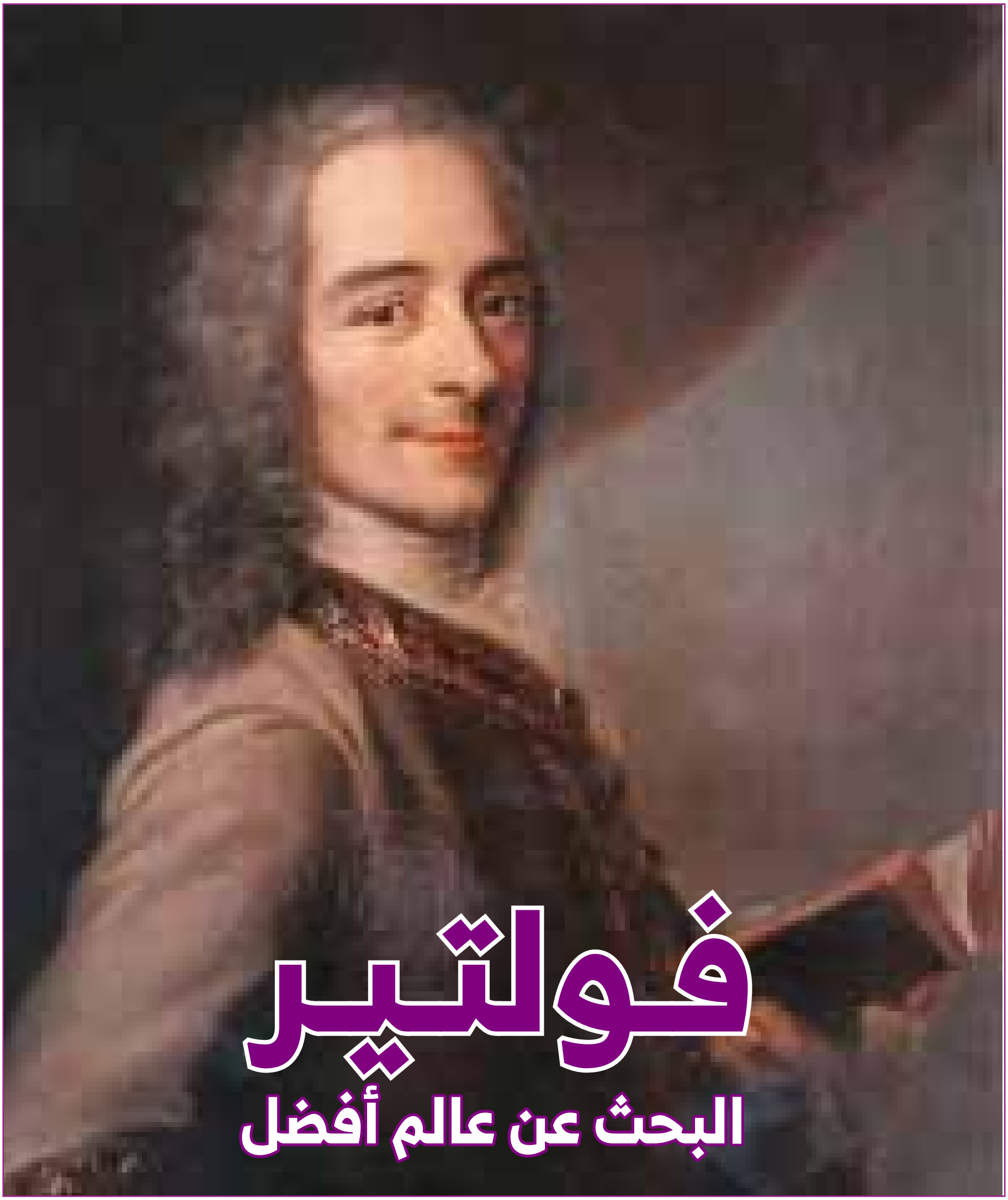

فولتير

البحث عن عالم أفضل

فولتير.. العقل مرشداً

علي حسين

لم تكن ولادته أمراً طبيعيا، فقدت جاء الى الدنيا وسط العويل والبكاء، ماتت أمه اثناء الولادة، واعتقد الاطباء انه ولد ميتا، لكنه سيخدع هذا العالم ويعود الى الحياة، كانت الممرضة التي سهرت على ولادته قد اخبرت والده ان ابنه لن يعيش اكثر من ساعة بسبب ما كان عليه من ضعف شديد. ولسوف يقول ساخر: " ولدت قتيلا ". وكان عند ولادته اضعف من ان يتمكنوا من تعميده. وذلك ما اتاح له ان يقول انه عاش في خصام مع الكنيسة منذ لحظة ولادته.

ولد فرانسو ماري آروويه في باريس في " ٢١ " من تشرين الثاني عام ١٦٩٤ من أبوين من طبقة الاثرياء، فقد كان والده كاتب عدل مدينة باريس، وأمه من الطبقة الأرستقراطية الفرنسية المعروفة بثرائها وبذخها، كان فرانسو الصغير على الرغم من ضعفه وهزال جسمه والامراض التي ترافقه، ولد ذكيا وعلى درجة من الحيوية والجرأة، وكان والده ينظر اليه بقلق فقد كان الصبي ينموا بشكل مبكر، وسيكتب احد مدرسيه ان هذا الصبي لديه " عطش الى الشهرة ومتلهف عليها ".في المدرسة يكتب قصائد عاطفية اعجب بها الطلبة واثارة حفيظة الاساتذه، وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره اعلن انه سيصبح أديبا، مما اثار حفيظة الاب الذي اعتبر القرار احمق ومخجل وسيرد على ابنه بكلمة قاسية قائلا: " انها حال رجل يريد أن يكون عديم النفع في المجتمع، وان يتحمل اهله أعباء الانفاق عليه، ويرغب في ان يموت جوعا " . يرفض عرض والده ان يصبح كاتب عدل: " قولوا لأبي إني ارفض رفضا قاطعا كل اعتبار يمكن شراؤه. ولسوف أعرف كيف أقيم لنفسي اعتبارا لا يكلف شيئا "، ظل طوال حياته رافضا الانصياع للآخرين وسوف تصبح كلماته شعارا للثورة عندا اطلق مقولته الشهيرة: " قولوا للملك إننا هنا بارادة الشعب ". ذلك الرجل سيكون اسمه " فولتير " ويعيش لأكثر من ثمانين عاما، ألف فيها اكثر من مئة كتاب ورسالة فلسفية، سلّم في نهايتها برميل الثورة المتفجر الذي ظل يصنعه لأعوام طوال، الى كل من روبسبير ومارا ودانتون، ليفجروه صبيحة يوم ١٤ تموز عام ١٧٨٩،. وقد استمدت الجمهورية الفرنسية افكارها من كتابات فولتير وروسو، فكانت اول ثورة تقرر فصل الدين عن الدولة والمساواة وحرية التعبير، وتلغي الإقطاع وامتيازات النبلاء ورجال الدين، وتضع اموال الكنيسة تحت تصرف الدولة، وتنشر مبدأ مجانية التعليم، ومشاريع العدالة الاجتماعية.

كثيرا ما يطرح سؤال: هل كان فولتير فيلسوفا؟ ام اديبا اتخذ من الاحتجاج مسارا لحياته؟.بعض كتاب سيرته يؤكدون انه قاوم إرادة الاشتغال بالفلسفة، في مرات كثيرة كان يسخر من الذين ينادونه بلقب الفيلسوف، مؤكدا عدم ثقته بالفلاسفة:" يخطئ الفلاسفة حين يعتقدون انهم عندما يتناولون مسائل نظرية صرفة، يَحلون على الفور مشكلات الواقع." كان يقول ان حلم تغيير العالم يجب ان يقوم به الناس البسطاء، لا أصحاب كتب المنطق، وكثيرا ما كان يسخر من صورة الفيلسوف المتجهم الوجه: " ويل للفلاسفة الذين لايستطيعون إزالة تجاعيد وجوههم بالضحك، انني انظر الى الوجوم الذي يسيطر على الفلاسفة نظرتي الى المرض." وعلى الرغم من نأي فولتير بنفسه عن الفلسفة، إلا أن مكانه الشرعي بين الفلاسفة الذين صنعوا فكر التنوير يحتل مركزاً متقدماً يفوق كثيراً من ابناء عصره، اولاً، لأن انتقاداته لعمل الفيلسوف لم تمنعه من ان يصبح بالاضافة الى جان جاك روسو وديدرو، ابرز الذين شقوا تاريخ الفكر الفلسفي الى نصفين، ما قبل فولتير وما بعده، فضلا على انه كان الأكثر حسماً في حدوث الانقلاب الحقيقي الذي انتقلت به اوروبا من عقلية القرون الوسطى الى عقلية العصور الحديثة، وبفضل كتاباته وكتابات زملائه خرجت البشرية من مرحلة الطائفية الهمجية لتدخل مرحلة العقلانية الحضارية، الأمر الذي دفع فيلسوفاً بحجم نيتشه ان يهدي إليه كتابه الشهير "في ماوراء الخير والشر"، قائلا: " الى فولتير، أحد كبار محرري الروح البشرية».

آمن فولتير باهمية الدفاع عن الحق " ليس هناك اجمل من الحق " ووجد ان مهمة الفيلسوف ان يتصرف في كل شيء وفقا للعقل، ويتقبل كل راي باسم العقل.كان فولتير في بداية مساره، كاتباً مسرحياً، وقد انتقل من سجن الباستيل الى الشهرة في زمن قصير جداً، حين قدمت له عام ١٧١٨ مسرحيته الخالدة "اوديب"، وقد حظيت بإقبال كبير حتى انها عدت آنذاك واحدة من درر المسرح الفرنسي، وقد عادت عليه بأموال كثيرة، جعلت والده يقتنع ان الأدب يمكن ان يجلب المال، فكان يقول لأقاربه وهو سعيد: " فرانسو هذا ولد خبيث استطاع ان يجني المال الوفير من ضحكات الناس ودموعهم." بعد "أوديب" قدم عدداً من الأعمال المسرحية اشهرها بروتوس، موت القيصر، الابن البار، زوليم، محمد، ميروب. وفي القصة كتب الكثير غير أن قصة زاديغ التي ترجمها طه حسين كانت الأشهر. أما رواية "كانديد"، فكانت تمثل خلاصة وجهة نظره بمستقبل أوروبا، وقدمت عبر بطلها ما يشبه السيرة للكاتب. عرفت كانديد شهرة واسعة خاصة أن فولتير، وبعد أن تطرق للأزمنة الماضية وسرد أحداث التاريخ وتطوره، قدم نظرته للعالم الجديد الذي انطلق بعد الحروب التي وصفها فولتير بقوله: "هذا القرن شبيه بحوريّة البحر، النصف الأول منها جميل مثل أسطورة والنصف الآخر قبيح ومخيف في شكل ذيل سمكة." وحين كتب كانديد قرر الابتعاد عن العالم الخارجي وعن صخب المجتمع الذي كان يستهويه، وعزل نفسه: "أريد أن أمتلك الأرض بكاملها أمام عيني في عزلتي».

عاش فولتير ظروفا صعبة وكلفته جرأته وصراحته الكثير من التضحيات حتى أنه وضع وصفا طريفا لحياته: "في فرنسا يجب أن تكون السندان أو المطرقة. أنا اخترت أن أكون سندانًا"، وكان يسعى لان تصبح الحياة من حوله اكثر حيوية وقوة: "كل من ليس حيوياً ومستعداً للمواجهة فهو لا يستحق الحياة وأعتبره في عداد الموتى". عُرف فولتير أيضاً بلهجته القاسية واللاذعة وبحسّه الساخر الممزوج دائماً برغبة في التغيير، وشكّل ظاهرة فريدة في الفكر الفرنسي، انتقلت عدواها الى عواصم ثقافية أخرى فتأسس ما يشبه "المدرسة الفولتيرية الفلسفية" التي بدأت مظاهرها تتوضح اكثر من خلال كتابه الشهير "القاموس الفلسفي" – ترجمه الى العربية يوسف نبيل –. ويعتبر قاموس فولتير اهم عمل انتج خلال عصر التنوير، ففيه نقد للطغيان وفيه كراهية للتعصب، وفيه ادانة للكنيسة عندما وقفت بوجه العلم: " أيها البشر البائسون، سواء أرْتديتم أردية خضراء، أم عمائم، أم أردية سوداء، أم أردية كهنوتية، أم عباءات وأشرطة حول الرقبة، لا تسعوا أبدًا إلى استغلال السلطة حيثما تكون هناك مسألة للعقل وحده، أو ترضوا بأن تكونوا محلّ ازدراء عبر كل القرون كأكثر الناس صَلَفًا، وأن تُعانوا كراهية الجماهير مثل أكثر الناس ظلمًا. حدِّثكم المرء مئات المرات عن السخافة المتغطرسة التي أدنتم بها جاليليو، وأحدِّثكم للمرة الحادية بعد المائة، وأتمنى أن تُحافظوا على ذكراها السنوية إلى الأبد. أتمنى أن يُكتَب على ضريحكم المقدس: هنا يَرقد سبعة كرادلة يُساعدهم بعض من الإخوة الأدنى رتبة، ألقوا بأستاذ الفكر في إيطاليا في غياهب السجن وهو في السبعين من عمره، وجعلوه يصوم على الخبز والماء لأنه علَّم الجنس البشري، ولأنهم كانوا جهلة " – قاموس فولتير الفلسفي –. يُعد قاموس فولتير في نظر مؤرخي الفلسفة، اول مؤلف فلسفي يستخدم اللغة العادية في التعريف بالافكار الفلسفية. خطرت فكرة " القاموس" لفولتير للمرة الاولى عندما كان في ضيافة ملك بروسيا. وفي سنة ١٧٦٤ نشر مجلدا وقد اسماه في بداية الأمر " قاموس فلسفي يمكن حمله "ثم اطلق عليه اسم " العقل بالأحرف الابجدية "، تعرض الكتاب الى حملة شرسة من الكنيسة، وأمر برلمان باريس باحراقه ووصف مؤلفه بانه منحل، ومعتوه ومتوحش. وكان الكتاب في جوهره تمجيدا للعقل ونقدا للخرافة يطرح فولتير من خلاله رأياً جريئاً وصادماً حين يؤكد ان معظم العقائد في الأديان هي نسيج من الأساطير ومن وضع جماعات دينية – حسن حنفي القاموس الفلسفي لفولتير مجلة تراث الانسانية – في القاموس ينبهنا فولتير ان الفضائل الحقيقية هي التي تقدم الخير الى المجتمع، فالاعتدال فيه محافظة على الصحة، والإخلاص والتسامح فيهما إبقاء على العلاقات الاجتماعية.، ويصر على ان الدين الوحيد الصحيح الناتج عن استعمال العقل، هو التنزيه المطلق الذي يظهر في الأخلاق العملية، من خلال ممارسة العدل، او الايمان بأن تعامل الناس بمثل ما تحب ان يعاملوك به.

واذا كان الهدف الأول من قاموس فولتير هو إعادة دراسة الدين ونقد الخرافات، فقد كان يرى ان الطقوس والشعائر والاحتفالات الدينية جرائم يجب ان يعاقب عليها كل من يزاولها لأنها ضارة بالمجتمع: "انا أعلم ان

اللـه ليـس بحاجـة الى قرابيننـا او صلواتنـا، ان عبادة اللـه لا تتـم بالطقوس ولكن بالسلـوك الشامـل و العمل الاخلاقي." – حسـن حنفـي –، ويرى فولتـير ان افضل نظام سياسي يقوم على العقل، ويصر على إشاعة مفهوم الجمهوريـة التي تقـوم علـى الديمقراطية ومبـدأ تبادل السلطـات وينكـر فولتـير على رجـال الديـن تدخلهم في شـؤون السياسـة، ويدعـو الى علمانية الحكـم، ويهاجم ادعاءات الكنيسة التي تريد ان تسيطر على البشر.

عندمـا نفـي فولتـير الى لندن عـام ١٧٢٦ اعجـب بكل ما شاهده في هذه المدينة وما سمعه من نقاشات وحوارات، ولمـا عاد الى فرنسـا اراد ان يبين لمواطنيـه معنى النظام الذي يقـوم على الحرية، ونبذ الطغيـان مما دفع البرلمان ورجـال الكنيسة الى المطالبة باعتقاله وحرق رسائله مما اضطره الى الهروب من جديد.

يبلـغ عـدد الرسائـل الفلسفيـة " ٢٥ " رسالـة – ترجمها الى العربيـة عـادل زعيتـر – وهي تتنـاول مسائل الدين والفلسفـة والادب، فالرسائـل السبعـة الاولى مليئـة بنقاشـات حول الدين، وفيها يوجه نقدا شديدا الى رجال الكنيسـة في فرنسا حين يكتـب: " إذا لم يكن في انجلترا سوى دين واحد فمن الممكن ان يكون دينا استبداديا، أما إذا كان فيهـا ديـنـان فسيأخذ كل منهـا في الفتك بصاحبه، ولكن يوجد في انجلترا ثلاثون دينا، وهي تعيش بسلام وسعـادة " – الرسائـل الفلسفية – امـا الرسائل الثامنة والتاسعـة والعاشرة فقـد خصصت للحديـث عن النظام السياسي في بريطانيا. وفي الرسائل المتبقية يتحدث عن الثقافـة الانكليزية، ويخصص الرسالـة الأخيرة لمناقشة افكار الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال وكتابه الخواطر.

لم يكـن هجوم فولتير علـى الكنيسة انـكارا لوجود الله، فقـد كان مؤمنـا بالديـن الطبيعـي يقـول: " عندمـا اري ساعـة يدل عقربها علـى الزمن استنتـج أن مخلوقا عاقلاً رتب لولبها لهذه الغايـة، وكذلك حينٍ أرى لولب الجسم الانسـاني استنتج ان موجـودا عاقلا رتب هذه الاعضاء، وان العينـين اعطيتـا للرؤيـة، واليدين للقبـض " ولهذا يـرى فولتير ان الانسـان في الطبيعة هو خاضع لقوانين ولا مجـال للمعجـزات، فمن غـير المعقـول ان يصنع الله القوانـين ثـم يخرقها. هذا هو الديـن الطبيعي والذي من خلاله كان للفيلسوف الانكليزي جون لوك والعالم اسحق نيوتن تاثيرا كبيرا على افكار فولتير.

مـن بـين المؤلفات التي طبعـت تاريخ الفكـر البشري كان كتـاب " رسالـة في التسامح " – ترجمـة هنريت عبودي – الـذي نشره فولتير عـام ١٧٦٣ والكتاب يتناول حادثة إعـدام جان كالاس البروتستنتـي الذي اتهـم بقتل ابنه الكاثوليكـي، حيث تعرض كالاس لتعذيب شديد، وأعدم تحـت ضغط الجماهير المتعصبة، برغـم أنه لم يكن هناك دليل على ارتكابه جريمة القتل، وقد تصدى فولتير لمفهوم التعصب حيث يعلن ان التعصب ليس قانونا الهيا، وليس من الممكـن تبرير التعصب باسم المنفعـة. ويحدد فولتير الشـروط التـي يجـب ان تتحقـق حتـى يعيـش الانسان سعيـدا سواء في الدنيا او الاخرة واولها ان يكون عادلا، وان يكـون متسامحـا في هذه الدنيـا، ولا يصدر احكامه بـدلا من اللـه: "لينقطع الناس عن تمزيـق بعضهم بعضا في موطـن السـلام " ويختتم فولتـير رسالته: " اني ابذر حبة تستطيع ان تنتج حصادا في يوم ما «.

في الساعـة العاشـرة ليلا من يـوم " ٣٠ " أيارعام ١٧٧٨ دخـل الطبيبان إلى الغرفـة، كان الرجل الممد على السرير يئـن بصوت خافـت، قام احدهـم بفرك الصدغـين، ففتح عينيـه وقال "دعـوني اموت "، حاولت المـراة التي تسهر علـى رعايته ان تستدعي القـس قال لها بصوت واهمن: " لاتحدثيني عن ذلك الرجل..دعيني أمت بسلام "، ثم ناول احـد القريبين منه ورقة اخرجها مـن تحت الوسادة، كان مكتوبـا فيها: " اني امـوت على حب الوطـن، ولم ابغض اعدائـي، واحـب اصدقائـي، ولا أؤمـن بالخرافـة ". في الثانيـة عشـر ليـلا كان قـد استنفـذ كل قـواه واستسلم للمـوت، الا ان حكايته لم تنتهي، ففـي خارج المنزل كانت الحشـود تنتظر ان يخرج اليهـا، ولم يجرؤ المحيطون به ان يعلنـوا خبر وفاتـه، وكان القـرار ان تخرج الجثة من البـاب الخلفي للدار لتوضـع في عربة لتدفن في الضريح الـذي اعد له، ومـن اجل اتمـام مراسم الدفـن توجه ابنا شقيقته الى الكنيسة ان تهب خالهما جنازة دينية، وبرغم الوساطـات التي قام بها عدد مـن المسؤولين الكبار الا ان الكنيسـة رفضـت رفضا قاطعـا منح بركاتـه للميت الذي كان يشتم فيها ليل نهـار، ويؤلب الناس عليها، واصدرت الكنيسـة تعليمـات صارمـة بان كل رجل ديـن يتدخل في هـذه القضية سيعفى من منصبـه، وجرى الاتصال بالملك نفسـه، فوجد نفسه في موقـف محرج واجاب: "إنه ما من سبيل سوى ترك الكهنة يقومون بمهمتهم «.

مـر يوم علـى الوفاة، وكانـت باريس لاتـزال تجهل ذلك، وفي لحظـة ما قـررا ابنـاء شقيقته ان يقـوم خالهم باداء دوره الاخـير في الحيـاة، فاستدعـوا الى غرفـة الميت جراحـا وصيدلانيا، ليقوما بتشريـح الجثة، وتحنيطها، وبعـد ان انتهـوا مـن المهمـة البسـوا الجثـة الثياب ثم وضعوها في العربة بهيئة الجلوس، وشدو العربة بستة خيـول، اذ كان ينبغي التحـرك بسرعة..كان الميت يجلس علـى وسـادات، مشدودا بقـوة ومقيدا باحزمـة مموهة، وقـد جلـس الى جانبه خـادم ليكـون رفيقا سفـر، وتبعه ابنـا الاخـت في عربة اخـرى، عنـد ابـواب باريس ادى الحراس التحية للرجل الجالس في العربة وكان واحدا من المشاهير، وانطلق الموكب بسرعة، ليصلوا الى مدينة سيليـر ليـلا، كان الدير الـذي قرروا دفن الجثـة فيه شبه مهـدم، فاختاروا ان يدفن قرب المذبح، فاقاموا برفع حجر كبـير وحفروا قليـلا، ووضعوا تابوتا مـن أربعة الواح، مددوا الجثة التي تمردت في حياتها على الكنيسة والملك، وقـد تم الاتصال باحد القسسـه حيث اقام قداسا بسيطا، ثم وري التابوت وغطي بالحجر.، بعد اسابيع علم اسقف باريـس بـان فرانسو ماري آروويه الشهـير بـ " فولتير " مات ودفن في سيليير، فاحاط اسقف المدينة بما جرى في الدير القديم، وطلب بمحاسبة رئيس الدير ونبش الجثة، واخبرهـم القس بان ابناء شقيقـة المتوفي قدموا له بيان بـان خالهم رجع الى الايمان، ورفض نبش الجثة قائلا ان فولتـير له الحق في الدفن ولم يصدر بحقه حرمان. الامر الـذي اغضب اسقف باريـس فقرر فصـل القس، ووصل الامـر الى الصحافة التـي قادت هجوم ضـد الاساءة الى جثمـان فولتير، الـذي استطـاع في النهاية يرقـد بسلام ولكن الى حين.

مـا ان قامـت الثـورة الفرنسيـة عـام ١٧٨٩ حتـى بـدا رجال الثـورة يفكـرون في نقل جثمان فولتـير، وبسبب الاضطرابـات تم تاجيـل الامـر لاكثر من عامـين، وبدات بعـض الصحـف تطالـب بتكريمـه باعتباره أبـا للثورة، وهكـذا صدر القـرار في ١ ايار عـام ١٧٩١ بنقل الرفات، وغلفـت الجثة المحنطـة بـورق السنديـان، وحملت على مـراى من الجموع التي كانت تلقي بـاوراق الزهور على الميت، جرى تحديد يوم ١١ تموز موعدا لنقل الرفات الى باريـس، وهو اليـوم الذي قرر فيه الملـك لويس السادس عشر الهـرب من القصر حيث تم توقيفه في مدينة فارين، وتصادف ان تلاقيا الموكبين، موكب الملك اسيرا في عربته يحيط به حرس الثورة، وموكب جثمان فولتير يحيط به حرسـن الشـرف، حيـث يدخـل الاول الى باريـس اسيرا مهزومـا، فيمـا يدخـل الثـاني منتصرا محاطـا بالحرس الملكـي الـذي كان يطـارده بالامس، فيما الملـك ينظر من عربته الى الرجل الذي تسبب في تصدع مملكته ولم ينفع السجن والنفي في اسكات صوته.

في باريـس التـي وصـل اليهـا النعش كان مئـات الالاف قـد تجمـع لاستقبالـه وهم يهتفـون تحية للتابـوت، فيما الخيالـة يتقدمـون الموكب، وارتال لانهاية لهـا من المشاة تحيـط بالتابوت الـذي كان يجد صعوبـة في شق طريقة وسـط الحشـود الهائلة، كانـت باقات الزهـور ترمى من النوافذ.

كان فولتـير يخالف جان جـاك روسو، ويـرى ان افكاره في تقديـس الغرائـز الفطريـة في الانسـان دعـوة تؤدي الى تعصـب وحماسـة مفرطـة، ولم يكن فولتـير يرى ما راه روسـو مـن أن الانسـان مفطور على الخـير او خير بالفطرة، وان ما به من شرور هو وليد الحياة الاجتماعية المصطنعـة، ولا بد من العودة الى الطبيعـة وإلى الفطرة الانسانيـة المطلقـة، فيمـا كان فولتـير يـرى ان الانسـان يحمـل الشـر والخير معـا وهو وليـد العوامـل المختلفة واهمهـا الجهل والاستبداد، وان الشر يمكن ازالته بازالة اسبابـه من خـلال تدعيم سلطـة العقل وارسـاء مباديء القانـون والدولة، ورغم الخـلاف الشديد الذي طغى على علاقة روسو بفولتير، والردود الساخرة التي كان يكتبها روسو على مؤلفات فولتير، والتي اتسمت بالحدة، الا ان فولتـير ما ان سمع بقرار السلطـات الفرنسية حرق كتاب "العقد الإجتماعي" لروسو، كتب مقاله الشهير الذي عن حرية الـراي والذي تضمن العبـارة الشهيرة: قد أختلف معك بالرأي، لكنى على استعداد لأن أموت دفاعاً عن حقك فى أن تبديه و تعلنه على الناس «.

هـل مـات فولتير؟ يكتـب جـان أوريو احـد اشهـر كتاب سيرة فولتير: من عسـاه؟أن يجرؤ على القول ان فولتير مات؟ فهـو من طبيعة النار والنور. كذلـك هو شعاع ذكاء لا يتغـير، ونسمـة تنفذ إلى جميـع الارواح التـي تعشق الحرية والعدالة، إنه الحياة «.

الزلزال والفلسفة

الحسن أسويق

" يوما ما سيكون كل شيء على ما يرام؛ ذاك هو أملنا.
كل شيء الآن على ما يرام؛ ذاك هو الوهم".

فولتير.

مـن بين الزلازل العديـدة التي اهتزت لضرباتها الكـرة الأرضية لم يشتهر منها زلزال قـدر اشتهار الزلزال الذي ضرب لشبونة البرتغالية في الفاتح من نوفمبر ١٧٥٥، والذي خلف، إلى جانب الخسائر المادية التي لا يسعها الحصر، ما بين ٣٥ و ٥٠ ألف قتيل.

إنـه الزلـزال الذي تجاوزت آثاره المفجعة المواد والأبدان إلى آثار صادمة على الضمائر والأذهان، وامتدت تداعياتـه نحـو المستويـات التيولوجية والفلسفيـة ولم تنحصـر في المستويات السياسيـة والاجتماعية المباشـرة الآنيـة. لقد أحدثت هـذه الكارثة الطبيعية، التـي نشأ على إثرها علم الـزلازل، رجة في الأوساط الفكرية والحساسية الفلسفية في عصر الأنوار إذ أعادت إلى الواجهة مشكلة الشر في العالم بين المتدينين والملحدين، وبين تيار المتفائلين وتيار المتشائمين.

حدث الزلزال ومشكلة الشر

تمثـل الـزلازل وغيرها مـن الكوارث الطبيعيـة، عند أهل القلم بمختلـف مشاربهم، منـذ العصور القديمة، مظهرا من مظاهر وجود الشر والألم في العالم، ومشكلة نظرية محيرة أفرزت محاولات عدة لتفسيرها.

وفي العصر الوسيط الاسلامي والمسيحي كان للفقهاء والمتكلمين والفلاسفة إسهام مهم في تناول اشكالية الشـر والعنايـة الالهية انطلاقا من السؤال: كيف يكون الله جـوادا عادلا ويخلق كل هذه القبائح والشرور والمضار والآلام في العالم الذي سمي كذلك لأنه علامة من علامات وجوده؟.

توزعـت إجابـات المسلمين بين المنظور الفقهي كما عبر عنه الامام السيوطـي في مصنفه "كشف الصلصلة عـن وصف الزلزلة" حيث يربط الزلازل بالأمـور الشرعية وما يستحب فعله من الوعظ والصلاة والتقرب بوجـوه البر؛ والمقاربـة الكلامية كما عبر عنها مختلف الفـرق الكلامية؛ والمقاربـة الفلسفية كما عبر عنها الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا.

غير أن أشهر النظريات بهذا الشأن نظرية الأصلح المعتزلية ونظرية أفضل العوالم الممكنة الغزالية.

كمـا أن للتيولوجيا والفلسفـة المسيحيتين مساهمة مهمة في الموضوع من خلال ما عبر عنه، بشكل خاص، كل من القديس أغسطين والقديس طوما الاكويني.

وسـواء تعلـق الأمر بأولئك أو بهـؤلاء، فقد اتبعوا في تبريرهـم لوجود الشر مسالـك حرصوا من خلالها علـى تبرئـة الله كليا من إرادتـه والتخطيط له والمساعدة على خلقه عامديـن إلى تبرير الشر الذي ليس إلا عرضا بما يتضمنه من خير بما هوجوهر، مرتقين بالفكرة إلى مرتبة الحقيقة الأنطولوجية، وضرورة من ضرورات الطبيعة التي لا تصنع باطلا.

إنهـا المشكلـة التي امتـدت إلى الفلسفة الحديث خاصة مـع الفيلسوفين كانط و ليبنتـس في كتابه الشهير "تيوديسيا"، والفلسفة المعاصرة مع تيودور أدورنو بول ريكور.

زلزال لشبونة بين تيار المتفائلين وتيار المتشائمين:

فولتير ضد ليبنتس وروسو

كان للحـادث تأثير قوي في العديد من المفكريـن الأوروبيين في عصر الأنوار خاصة المفكرين الموسوعيين بفرنسا التي كانت في ذلك التاريخ مركز الفكر العقلاني، ومن تجليات ذلك التأثير الجدال الحاد بين فولتير وروسو.

بعـد مضـي سنة على الحـادث المفجع (عام ١٧٥٦)، كتـب فولتير قصيدته الشهـيرة: "قصيدة حول فاجعة لشبونـة" مذيلـة بعنوان فرعي: "نظـر في فرضية كل شيء على ما يرام" عبر فيها عـن نقده اللاذع للنزعة التفاؤلية ونظرية أفضل العوالم الممكنة كما بلورها ليبنتس متأثرا ب"بوب" صاحب "مقال حول الإنسان" وربمـا بالغـزالي أيضا، رافضا ومستنكرا لفكرة الغضب الالهـي راسما بذلك لوحة قاتمة مغرقة في النزعة التشاؤمية مستعملا قاموسا يغرف من الخطاب التراجيدي – الأبوكاليبتيكي.

في رده المباشرعلـى فولتـير كتب روسو "رسالة حول العناية الالهية" نشـرت في نفس السنة التي نشرت فيهـا قصيدة فولتـير. وفيها دفاع عن النزعة التفاؤلية التي يتقاسمها مع بـوب وليبنتس، ودفاع عن الفعل الالهي السليم بحجة أن مخاسر الزلزال من مسؤولية الانسان. وهي الرسالة التي لم يجب عنها فولتير إلا بعد مضي ثلاث سنوات في روايته "كونديد أوْ النزعة التفاؤلية"" عام ١٧٥٩.

في نظـر روسـو أن المخاسـر كان من الممكن أن لا تكون مـن الفداحة والحدة لو أن الناس لم يتكدسوا في بنايـات متجـاورة وفي أماكن ضيقة ضدا على النواميس الطبيعية. كما أن الزلزال عموما لا يمثل إلا الشر على الأقل في مقابل الخير الذي على الأكثر.

مقاطع مترجمة عن الأصل الفرنسي من "قصيدة حول فاجعة لشبونة" لفولتير

يجانب الفلاسفة الصواب حين يزعمون أن "كل شيء على ما يرام"،

إهرعوا لتتأملوا: هذه الأطلال الرهيبة،

و الأنقاض والخرق والرماد الحزين،

وهؤلاء النسوة والأطفال المتراكمة جثثهم.

.....

.....

هل ستقولون، عند رؤية هذا الركام من الضحايا:

"إن الله ينتقم، وأن الضحايا إنما يدفعون ثمن خطاياهم"؟

أية خطيئة وأي جرم لهؤلاء الأطفال

الملتصقة أفواههم بالأثداء المسحوقة والدامية لأمهاتهم؟

هل بلشبونة، التي لم يبق لها أثر، رذائل أكثر مما يوجد بلندن أو باريس الغارقة في الملذات؟

لشبونة منكوبة، وفي باريس تقام حفلات الرقص

عمن موقع " ثقافات "الالكتروني

(كانديد)فولتير ردّاً على الكارثة:
محكومون بالأمل!

تغريد عبد العال

«إذا كان هذا خير العوالم الممكنة، فمتى تكون العوالم الأخرى؟» يسأل كانديد، الشخصية المتفائلة التي تؤمن بالأمل في هذا العالم الكارثي والتي اخترعها الأديب الفرنسي فولتير في رواية تحمل الاسم نفسه حتى يردّ على أحد مفكّري عصر التنوير آنذاك، جان جاك روسّو بعد مراسلات كثيرة بينهما. ينتقدُ فولتير في الرواية فلسفة التّفاؤل التي كان أحد رموزها الفيلسوف الألماني لايبنتز. فقد كتب الرواية بعد زلزال لشبونة عام ١٧٥٥، الذي دمّر المدينة بشكل كامل، وأعقب الزلزال تسونامي وحرائق وتسبّب في مقتل مئة ألف إنسان. وقد أحدث الزلزال أيضاً أزمة وجودية ونقاشاً حادّاً بين فلاسفة التّنوير حول معضلة الشر. فقد آمن لايبنتز أنّ عالمنا يسير دائماً إلى الأفضل رغم كل الشرور والكوارث التي تحيط بنا، وهذا ما رفضه فولتير في الرّواية بشدة.

لكن فولتير لم يكن متشائماً كلياً، كأنه يتّفق فكرياً مع أنطونيو غرامشي في جملته الشّهيرة «تشاؤم العقل، تفاؤل الإرادة». فقد خلق فولتير في روايته شخصيّتين متناقضتين: كانديد الذي تعلّم على يد معلمه بانغلوس فلسفة التّفاؤل ورؤية هذا العالم كأفضل العوالم الممكنة، ومارتن المتشائم الذي يرى أن الشّر يملأ العالم وأن النّاس بؤساء وسيبقون كذلك. وخلق هذا الحوار الفلسفي بينهما على طول الرواية، فكأنّ ما يحتاج له كانديد المتفائل هو صديق متشائم يجعل رحلته تتوازن وتستقر في النهاية عند نقطة مشتركة يجعلها فولتير جوهر نقده للتفاؤل.

طرد كانديد من قصر البارون لأنّه كان يعشقُ ابنته كونيغوند، فهربَ إلى قرية بعيدة، وانتقل من مكان إلى آخر ومن بلد إلى آخر، وبدأت المصائب تنهال عليه ابْتداءً بإبادة البلغار للقرية التي هرب إليها، مروراً بزلزال لشبونة، وصولاً إلى موت صديقه بانغلوس. لكن كانديد يبقى متفائلاً، ويعلم أن كونيغوند لا تزال حية، فيضع هدفاً لحياته بأن يتزوج منها، لتتوالى رحلاته حتى يفوز بها في النهاية.

تبدو قصّة الحب تلك مفتاحاً ليفتحَ فولتير باب الحوار الفلسفي على أسئلة أخرى، فكانديد يتمسك بكونيغوند كما يتمسّك بالأمل، ويجعلها وجهة له في كل مرة يتعرض فيها للأهوال، التي يصوّرها فولتير بأسلوب ساخر، فنشعر كأن العالم يغرق في الجثث التي تتقطع وتترامى والبشر الذين يقسمون نصفين، والسفن التي تغرق. لكن في نهاية تلك الكوارث، يستقرّ الجميع في مكان واحد لأن فولتير لا يرى أن الشرور تستمرّ إلى الأبد لكنها موجودة بطبيعة الحال، والسخرية بذاتها هي موقف متشائم يقف بعيداً ويذكرنا بسوداوية الواقع وكارثيته.

وهكذا تظهر الشخصيات التي تساعد كانديد في تخطي أزماته كل مرة تباعاً، من بانغلوس الذي علمه التفاؤل، إلى جاك، إلى العجوز، وتتكشّف قصص هذه الشّخصيات، لأنّ سرد القصص هو من الأهمية التي تجعل الكارثة أخف بنظر فولتير الذي يذكر على لسان شخصية العجوز أنها رغم ما مرت به من مآس، إلّا أنها تستمع للقصص لأن هذا ما يجعلها تتعلق بالحياة أكثر. القصة مصاحبة للكارثة في الرواية، كما كان الأمل مصاحباً لكانديد ولأصدقائه الذين شاركوه روايةَ مآسيهم. ولكن الشخصيات التي تموت، تعود مجدّداً كإشارة إلى أنّها شخصيّات رمزية تعود إلى الحياة لأن تأثيرها في ذهن كانديد كان قوياً مثل معلمه بانغلوس الذي قتل ثم التقى به مرة أخرى وكونيغوند التي يلتقي فيها كانديد في النهاية.

يصل كانديد إلى بلاد متخيلة اسمها ألدورادو، وهي شبيهة بالمدينة الفاضلة، لا سجون فيها ولا محاكم تفتيش ولا ظلم، فقط مبانٍ وأشجار وعيون ماء الورد والذهب الذي يملأ الشوارع. ورغم ثقة كانديد بأن هذا هو أفضل العوالم الممكنة الذي كان يتحدث عنه معلمه بانغلوس، إلا أنه شعر أنه ليس هو المكان الذي يريد أن يكون فيه، فهو لا شيء بدون حبيبته كونيغوند. إذاً، فإن اختراع فولتير لهذا المكان يُظهر نقده الحاد للتفاؤل بأن كل شيء سيتّجه نحو الأفضل، فحتّى هذا المكان الجميل ليس جميلاً في الحقيقة لأنه ناقص بدون حب، وإن هذا النّقصان هو ما يحرّك كانديد للذهاب إلى الأمام.

وهكذا يتصاعد خط السرد في الرواية حتى يتعرف كانديد إلى مارتن المتشائم، الذي يبدو أنه رفيق كانديد لكنّهما ليسا متّفقين. حتّى في الثقافة والشعر والفن، يعبّر كانديد عن إعجابه واحترامه للشّعراء الألمان. أما مارتن، فكان ينتقدهم ويعبّر عن لاجدوى الفنّ والشّعر في العالم. لم يترك الاثنان موضوعاً إلا وتجادلا فيه لترتفع وتيرة الحوار في النّهاية وتصل إلى نقطة واحدة لتصبح هي الخيط الذي يجمعهم جميعاً.

أما صداقة كانديد ومارتن أثناء السّفر، فهي شبيهة برفقة جلجامش وأنكيدو في ملحمة جلجامش، والرحلة أيضاً تتشابه في أنها رحلة فلسفية وفكرية وليست فقط من مكان إلى آخر، إنما من منطقة تفكير إلى منطقة أخرى، حيث يبدأ كانديد بالتفاؤل الأعمى إلى التشاؤم العقلاني أو إلى الإيمان بفكرة العمل في هذا العالم. ففي اللحظة التي يلتقي فيها الجميع وتطرح العجوز سؤالاً، تتغير وتيرة النقاش بينهم، ويقودهم السؤال للقاء بعجوز يهتم بحديقته وهناك يعثر كانديد على جوابه، فهو يريد أيضاً أن يهتم بحديقته. ففي الحوار الأخير، يقول له بانغلوس: إنّ كل الأحداث مترابطة في خير العوالم الممكنة، فلو أنك لم تُطرد من قصر جميل، وتضرب على قفاك بسبب حبّك للآنسة كونيغوند، ولو أنّك لم تخضع للتّحقيق، ولو أنك لم تجتز أميركا سيراً على الأقدام ولو أنك لم تطعن البارون، ولو أنك لم تفقد خرافك التي أتيت بها من بلد الإلدورادو الطيب، لما كنت تأكل هنا ثماراً وفستقاً.

فيقول له كانديد: هذا صحيح ولكن يجب أن نزرع حديقتنا. هذه الفكرة جعلت الجميع يبدأ بالعمل كطريقة حياة ممكنة في أفضل العوالم أو في أسوئها. فكما قال هنري كلوار في «الإنشاء الفرنسي» عن الرواية: «إن كانديد هي القصة الأكمل والأبلغ بين أقاصيص فولتير، إذ تمثل تطوّراً هاماً عند المؤلف». ففي بداية القصة، كان متفائلاً جداً كما كان فولتير في بداياته، وفي ما بعد وبعد نكبة لشبونة، بدأت خيبة الأمل عنده. وفي نهاية الأمر، تتضح فلسفة فولتير في التشاؤم البنّاء والحيوي والنّاقد للواقع لكي تتوحّد الجهود في النّضال من أجل تحسين القوانين وتحسين حياة البشر.

يغيب الزمن في الرواية، ربما كي يوحي فولتير بأن القصة قد تحدث في أي زمن وفي أي مكان، لكنه يظهر فجأة في النهاية حين يذكر كانديد أن كونيغوند قد أصبحت عجوزاً قبيحة. يضع فولتير نقطة لهذه الكوارث وهو يذكرنا أن التفاؤل والتشاؤم صديقان يلتقيان في وقت ندرك فيه أن اهتمام كل فرد بحديقته هو جوهر الخروج من مأزق الزمن المتشائل الذي نصحو فيه من كل كارثة ونحن محكومون بالأمل.

جريدة الاخبار اللبنانية

"كانديد" لفولتير درس ساخر في التفاؤل الفلسفي

البحث المستحيل عن عالم أفضل رغم الحروب والأوبئة والفساد

إبراهيم العريس

ليس سهلاً العثور على مثقف أو طالب جامعي أو حتى ثانوي في فرنسا خصوصاً وأوروبا عموماً، فاته أن يقرأ في شبابه وفترة تكوينه الفكري رواية فولتير "كانديد"، فهذا العمل ليس الأشهر بين كتابات فولتير وحسب، بل ربما يصحّ اعتباره واحداً من أشهر الروايات الأوروبية التي صدرت في القرن الثامن عشر لتُقرأ مترجمة إلى معظم لغات العالم، بما فيها العربية طبعاً.

ومع هذا، لن يكون من الغريب أن نقول اليوم إنّ "كانديد" تكاد تكون العمل الأدبي، بل الفلسفي حتى، الذي لا يزال قابلاً لكل أنواع التفسير، وتحديداً في ضوء الأزمان التي تُفَسّر فيها، وتبعاً للعين التي يُنظر بها إليها. وهذا ما يجعلها أشبه بـ"الرواية الحرباء"، على الأقل حسب ما وصفها به ذات مرة أحد كبار النقاد الفرنسيين في القرن التالي لصدورها، في معرض الثناء عليها لا الشجب.

ومع هذا، حين أصدرها فولتير (الاسم المستعار لفرانسوا ماري أرويه الذي عاش بين ١٦٩٤ و١٧٧٨) للمرة الأولى في عام ١٧٥٩، تحت عنوان "كانديد" أو "التفاؤل" وكان قد تجاوز الخامسة والستين من عمره، نشرها من دون أن يُشار فيها إلى اسم المؤلف، في حقبة من التاريخ الأوروبي كانت تعيش اضطرابات وانتشار أوبئة وحروباً، أبرزها تلك المسماة حرب الأعوام السبعة، ناهيك بالزلزال المريع الذي ضرب لشبونة أوائل عام ١٧٥٠، مرخياً ظله الثقيل على أوروبا كلها، ونعرف أن "كانديد" طُبعت عشرين طبعة خلال السنوات المتبقية من حياة مؤلفها، لتعود وتحمل اسمه بعد ذلك.

أشرنا قبل سطور إلى أن هذه الرواية يمكن قراءتها بأشكال متنوّعة، بيد أن كل تلك القراءات تُجمع على قوة حسّ السخرية الذي يغمرها، ويجعل قراءتها متعة حتى بالنسبة إلى الذين يفضلون عادة أن لا يقرؤوها بين السطور، بل عند الدرجة الأولى من المعنى. أي حيث تحاول الرواية أن تجيب عن السؤال نفسه الذي طرحه المفكرون والفلاسفة المعنيون بشؤون البلاد والعباد على أنفسهم: ما العالم الأفضل بين العوالم الممكنة؟

والحقيقة، أنه إذا كان هذا السؤال يعد بأن تكون الرواية منتمية إلى الكتابات اليوتوبية، الخيالية، أي التي ما انفكت تصدر منذ «جمهورية» أفلاطون وصولاً إلى خائبي الأمل من الشيوعية في القرن العشرين (من «عالم جديد شجاع» لهاكسلي إلى «١٩٨٤» لجورج أورويل، مروراً بالروسي المنشق زامياتين صاحب «نحن») مروراً بأصحاب «المدن الفاضلة» من بيكون إلى الفارابي إلى توماسّو كامبانيلا إلى ويليام موريس، واللائحة تطول طبعاً. وهي قائمة يحلو لكثر من المؤرخين أن يضموا «كانديد» إليها.

لكن، رواية فولتير هذه قد تكون متفرّدة وعلى حدة بين كل هذه الأعمال، إذ تعارضها جميعاً بكون جوابها عن السؤال المشترك المطروح هو وبكل بساطة: إن أفضل العوالم الممكنة هو بالتأكيد هذا العالم الذي نعيش فيه. أجل ذلك هو الاختلاف الأساسي بين "كانديد" وكل روايات اليوتوبيا الأخرى، وإلا لماذا جعل فولتير عنوانها "كانديد" أو "التفاؤل". إنها رواية متفائلة منذ سطورها الأولى وغلافها. لكن هل هي حقاً كذلك؟ لنرى! كانديد، الذي يعير اسمه عنواناً للرواية، شابٌ بسيطٌ يعيش في قصر البارون ثاندر- تن- ترونخ في مقاطعة وستفاليا. وفي ذلك القصر المنيف يحاول أستاذه الفيلسوف بانغلوس أن يعلم فتانا فلسفة الفيلسوف الألماني لايبنتز الرائجة، وهي فلسفة يرى المعلم أنها تستند إلى مبدأ التفاؤل الذي يعرف كيف يتجاوز كل الصعوبات والمحن. ويرى هذا المبدأ الذي لا يُقهر أن العالم الذي نعيش فيه وننتظم تبعاً لأنظمته هو أفضل عالم وُجد منذ بداية الحياة الاجتماعية، وليس ثمة أي سبب يدفع إلى محاولة تغييره. كل ما علينا هو أن نبتسم له ونرضى به فنكون من أسعد السعداء.

يتلقى كانديد تعاليم معلمه سعيداً مطمئناً، وعلى الأقل حتى اليوم الذي يحاول أن يطبع فيه قبلة بريئة على فم الصبية كونيغوند ابنة سيد القصر، فلا يكون من أمر هذا الأخير إلا أن يطرده شرّ طردة. غير أن ابتعاد كانديد عن ذلك العيش الرغيد لن يبدّل من تعامله المتفائل مع الحياة، حتى وإن وجد نفسه شريداً يجوب العالم طولاً وعرضاً من جراء تلك القبلة.

خلال ذلك التجوّل الذي يبدأ من لشبونة وينتقل منها إلى القارة الأميركية مرور بالإلدورادو، التي سنعود إليها بعد سطور، وبوردو الفرنسية والبندقية الإيطالية والقسطنطينية. خلال ذلك التجوّل لا تتوقف المصائب عن الوقوع على كاهل فتانا الذي ينتقل من بؤس إلى بؤس ومن فاقة إلى فاقة، إنما دائماً من دون أن يترك لأيّ من تلك المصائب إمكانية النيل منه، ومن يقينه بأن ما يحصل له ليس في الإمكان أن يكون ثمة ما هو أفضل منه.

صحيحٌ، أنّ العالم كما يختبره كانديد المتجوّل فيه برفقة خادمه الخاص كاكامبو عالم بؤس وفاقة وألم تخلت عنه العناية الإلهية، لكن هذا لا يهم. فلكل شيء سببه، وكل شيء سينتهي خير نهاية. والدليل إلدورادو التي يصل إليها صاحبنا ذات يوم ليجدها مستجيبة لتوقعاته التفاؤلية. إلدورادو فردوس أرضيّ يصل إليه كانديد من دون تخطيط ومن دون توقع. فجأة وجد نفسه وخادمه يدخلان مدينة الحلم الذهبي المحاطة بجبال تخفيها عن عيون الطامعين، ما يحفظ لها ثرواتها ونقاءها. فهل تراها ستكشف لكانديد خطل نظرية معلمه المستقاة من لايبنتز، والقائلة إن كل شيء في العالم على خير ما يكون.

إن الثراء هنا فاحش إلى درجة أن كلّ بحصة مرمية في الطريق ليست سوى حجر كريم. والترف ماثل في أدق تفاصيل العيش وثنايا الثياب. ثمة هنا ما يكفي الجميع، ولذا لا يتطلع أحد إلى ما عند الآخرين، بالتالي يستتب السلام والوئام وتخلو المنطقة من القضاة والسجون، إذ لا جريمة هنا فلا حاجة إليهم بالتالي. والأهم من هذا أن ليس ثمة في إلدورادو تطلع للوصول إلى السلطة، فالملك عاهل طيّب يتحدّث إليه الناس ببساطة ويتعامل هو معهم بأريحية.

هل نختبئ لنعيش سعداء؟

من الواضح هنا أن فولتير يستعيد أسطورة تلك المدينة التي اكتشفها الأوروبيون منذ القرن السادس عشر في أميركا الجنوبية، وعزز السير والتر رالي الإيمان بوجودها لاحقاً ما جعلها قبلة تطلعات الأوروبيين، باعتبارها المدينة الغنية المثالية. لكن فولتير لا يتعامل معها هنا في "كانديد" على ذلك النحو، بل بصيغة من الواضح أن غايتها تأكيد استحالة ذلك "الحلم". فالفيلسوف الفرنسي يبالغ في الحديث عن إلدورادو هذه إلى درجة تجعل من غير المنطقي التصديق بوجودها. إنه يجعل منها، في نظر بطله، "مملكة المستحيل" بصورة نهائية، وبالتحديد لأن هذه المملكة لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن تكون في متناول الإنسان، فهي أكثر كمالاً من أن تكون منطقية.

ومن هنا، لن يدهشنا أن كانديد وخادمه سرعان ما يبديان بؤسهما إزاء كل ما يريانه هنا، فهو في نهاية الأمر التفاؤل نفسه، بشكل لا يعود معه من مكانٍ للتفاؤل. وهكذا إذ يشعر صاحبانا أنهما بائسان حقاً وللمرة الأولى في تجوّلهما، يقرران أنهما يفضلان أن يكونا بائسين متساويين في البؤس مع بقية البشر على أن يكونا من الثراء بحيث يكونان متفردين. غير أن لسان حالهما سيكون أكثر منطقية: "سنعود إلى عالمنا لنعيش مع الآخرين، لكننا سنأخذ معنا حمولة ١٢ خروفاً من حصى إلدورادو، فنكون بذلك أغنى من الملوك جميعاً". سيفعلان لكنهما سيضيّعان الحصى بالتأكيد، بيد أنهما سيكونان تعلّما العيش بسعادة في العالم غير السعيد: عبر الاهتمام بشؤونهما الخاصة، والابتعاد قدر الإمكان عن مشكلات الآخرين. ويتساءلان في نهاية الأمر حائرين: إذن هل علينا أن نختبئ كي نعيش سعداء؟ ويقرران أن هذا حلم بسيط، لكنه على قياسهما كبشر.

عن اندبندنت عربية

زلزال لشبونة يشعل معركة فلسفية كبرى بين فولتير وروسو

أسقط المدينة على عروشها وأوقع ١٠٠ ألف ضحية على الأقل

هاشم صالح

في الأول من نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٧٥٥، ضرب زلزال هائل مدينة لشبونة البرتغالية أدى إلى إسقاط المدينة خائرة على عروشها، وإيقاع مائة ألف ضحية على الأقل. لقد هز هذا الزلزال كل العقول المثقفة في أوروبا آنذاك. لقد صدمهم، أذهلهم، دوخهم. ولكن نظراً لعدم وجود وسائل تواصل سريع في ذلك الزمان فإن فولتير، المقيم في جنيف، لم يسمع به إلا يوم ٢٤ نوفمبر؛ أي بعد أكثر من ٢٠ يوماً على حصوله. لم يكن هناك تليفون ولا راديو ولا تلفزيون ولا إنترنت، وإلا لسمع به على الفور في اللحظة التي حصل فيها. وهنا يكمن الفرق الأساسي بين عصر فولتير في القرن الثامن عشر، وعصرنا نحن في القرن الحادي والعشرين. كم نحن محظوظون! كم نحن سعداء! نحن أباطرة دون أن ندري! كل واحد منا فرعون صغير يتربع على عرشه ويتفلسف على البشرية من خلال شبكات التواصل الاجتماعي. ومع ذلك فإننا نتشاكى ونتباكى. هل كان فولتير يستطيع أن يتخيل حجم التقدم الهائل الذي سيحصل بعد موته، وهو الذي فعل كل شيء من أجل هذا التقدم؟ نعم إلى حد ما. كان يقول دائماً: نحن نزرع والأجيال المقبلة تحصد. نحن لن نرى بأم أعيننا ثمرات جهودنا وتعبنا وعرق جبيننا. نحن سنموت في ظل الظلامية الدينية والخرافات والشعوذات ولن نرى أول خيوط الفجر. ولكن ما هم! المهم أن ينتصر التنوير، وأن تستمتع به الأجيال المقبلة. التقدم سوف يحصل حتماً، وسوف يشع بأنواره على كل أوروبا، وربما على البشرية بأسرها. وهذا ما حصل بالفعل بعد موته وموت جيله التنويري العظيم كله.

لكن لنعد إلى موضوعنا الأساسي. ماذا فعل زعيم الأنوار الفرنسية عندما سمع بالخبر الصاعق؟ يقال إنه دخل في حالة من الهم والغم لا توصف، وراح يتخيل آلام الضحايا وصرخات المفجوعين من تحت الأنقاض. وجن جنونه! راح يطلق صرخات الغضب في كل الاتجاهات حتى وصل إلى العناية الإلهية ذاتها. أستغفر الله! لماذا كل هذا العذاب يا رب؟ لماذا كل هذه الآلام والفواجع؟ لماذا كل هذا الشر في العالم؟ لماذا لم تمنعه بما أنك قادر على كل شيء؟ ثم تراجع قليلاً واعتذر لأنه مؤمن بالله ولا يمكن أن يكفر به مهما حصل. وعندئذ أصدر «قصيدة برشلونة» التي يطرح فيها كل هذه التساؤلات الفلسفية والميتافيزيقية. وراح يصب جام غضبه على الفيلسوف الألماني الكبير لايبنتز؛ لأنه قال إن الله خلق العالم على أحسن تقويم، وإنه أفضل العوالم الممكنة، وإنه مهما حصل ويحصل لا يحق لنا أن نشتكي على الإطلاق؛ لأنه ما كان بالإمكان أفضل مما كان. وهذه هي الفلسفة التفاؤلية التي أشاعها المفكر الألماني العظيم في الأوساط المثقفة الأوروبية، بدءاً من القرن السابع عشر. انظر كتابه الشهير الصادر عام ١٧١٠ بعنوان طويل هو: «مقالات عن علم الربوبية الخاصة بالطيبة الإلهية والحرية البشرية وأصل الشر».

لقد سخر فولتير من هذا الكتاب وتصوراته عن العالم في قصيدة برشلونة هذه، واعتبر أن لايبنتز شخص «مغفل»، في حين أنه يوجد شبه إجماع على أنه آخر «العمالقة والعباقرة الكونيين». فهل يعقل أن يكون فيلسوف الألمان مغفلاً أو ساذجاً إلى مثل هذا الحد؟ السؤال الفلسفي الميتافيزيقي الذي طرحه لايبنتز هو التالي: كيف يمكن أن نوفق بين شيئين متناقضين ظاهرياً؟ المقصود: كيف يمكن أن نوفق بين وجود إله طيب ومهيمن وعادل وجبار من جهة، ووجود الشر والمصائب والكوارث الطبيعية من جهة أخرى؟ جواب لايبنتز هو أن العالم كما نعرفه هو أفضل العوالم الممكنة. ولا يمكن أن يوجد عالم آخر أفضل منه، رغم كل الشرور التي قد تحصل فيه؛ وذلك لأن هذه الشرور قد تكون مقدمة ضرورية لخير أعظم يعوض عنها لاحقاً ويغطي عليها. «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» صدق الله العظيم. ثم يقول لنا لايبنتز هذا الكلام الجوهري: الألم والقلق والمشاكل هي «ملح العالم» إذا جاز التعبير. ما معنى عالم من دون مشاكل وهموم وتحديات؟ على قدر أهل العزم تأتي العزائم! ما معنى حياة كلها سهولة وسعادة وسرور وحبور على طول الخط؟ كم هي مملة؟ لا تعرف طعم الحلو إن لم تذق طعم المر! ما أجمل لحظات السعادة عندما تجيء بعد لحظات التعاسة والقلق والهم. ما أجمل اللقاء بعد الفراق. وبالتالي فالشر والألم والقلق هي شروط إجبارية لتحقق الخير، إنها وسائل للتوصل إلى اكتمال أعظم لاحقاً.

لقد سخر فولتير من أطروحة لايبنتز وتهكم بها، بل شوّهها قليلاً أو كثيراً عندما قال ما معناه: «كل شيء على ما يرام في أفضل العوالم يا جماعة! افرحوا يا ناس بزلزال لشبونة وموت الأطفال والأمهات! افرحوا بالأنقاض والحطام على مد النظر! فعلاً إنكم أغبياء يا بشر! لماذا لا تحمدون الله على كل هذه النعمة؟ إلخ». هل زادها فولتير «شوية» هنا؟ حتماً زادها. لايبنتز لم يقل ذلك. لايبنتز لم يقل بأن العالم «كامل»، وإنما قال إنه أفضل العوالم الممكنة، وإن الشر مقلّص فيه إلى أقصى حد ممكن. وإلا لكان زلزال لشبونة قد حصل كل يوم أو كل شهر. هذا هو شر العوالم الممكنة فعلاً. وبالتالي فزلزال لشبونة هو استثناء لا يتكرر، وبالفعل لم يتكرر في هذه المدينة منذ عام ١٧٥٥ وحتى اليوم؛ أي منذ ٢٦٧ سنة على الأقل.

لكن بعد كل هذه الديباجات والتعريجات والتخريجات، ما علاقة جان جاك روسو بالموضوع؟ لماذا حشرناه هنا، بل حتى في العنوان؟ علاقته أكثر من علاقة؛ وذلك لأن فيلسوف جنيف سوف يفحم فولتير ويقدم تفسيراً آخر لكارثة لشبونة، ولوجود الشر المستطير في العالم، وسوف يكون جوابه أقرب إلى فكر لايبنتز، ولكنه سيتجاوزه أيضاً. إنه تفسير فلسفي من أعمق ما يكون. وقد عبر عن ذلك أقوى تعبير عندما أصدر رسالته الشهيرة عن «العناية الإلهية». كل شيء يحصل كما لو أن جان جاك روسو أراد أن يقول لفولتير: عيبٌ عليك! كف عن هذه النزعات الصبيانية! في كل مرة يحدث فيها حادث ما تتهمون الله والقدرة الإلهية وتنسون أنفسكم. المسؤولية تقع على البشر لا على الله جل جلاله يا سيد فولتير. هذه اتهامات سهلة لا تليق بمفكر كبير مثلك. أحياناً نسمع الأمهات وهن يصرخن ثكلى مفجوعات رافعات رؤوسهن نحو السماء: يا رب لماذا مات طفلي؟ لماذا أخذته؟ وهن معذورات. ونحن ننحني أمام صرخات الأمهات. والجنة تحت أقدام الأمهات. ولكن فولتير كمفكر كبير غير معذور. المفكر الكبير يرى إلى أبعد من أنفه أو يفترض ذلك. ثم يضيف روسو: العناية الإلهية التي هي كلها خير وعدل وبركة وحكمة ليست مسؤولة إطلاقاً عما حصل. البشر هم وحدهم المسؤولون. لو أنهم بنوا بيوتهم بشكل متفرق ومتباعد على مساحات واسعة محيطة بالعاصمة البرتغالية بدلاً من بنائها متكدسة بعضها فوق بعض لكانت الخسائر أقل بكثير. وثانياً لو أن أهالي لشبونة غادروا منازلهم على الفور ما إن ابتدأت جدران منازلهم تهتز، بدلاً من أن يحاولوا حمل ثيابهم وحوائجهم والبحث عن فلوسهم وذهبهم... إلخ، لخفت الخسائر كثيراً أيضاً، ولربما انعدمت في نهاية المطاف.

نلاحظ أن محاجّة روسو قيّمة، ولكن كان يصعب تحقيقها في ذلك الزمان؛ لأن العلم التكنولوجي لم يكن قد تقدم كثيراً كما في عصرنا. فمثلاً اليابان المشهورة بالزلازل ما عادت تخشاها؛ لأنها بنت البنايات بطريقة معينة تجعلها قادرة على مقاومة الهزات الأرضية بكل فاعلية. ثم علّمت الشعب كيفية التصرف لحظة حصولها. واستبطن اليابانيون ذلك في سلوكهم اليومي. ويقال إنه في عام ٢٠١١ حصل زلزال هائل في اليابان بقوة ٩ ريختر، ومع ذلك لم تتأثر البلاد به، ولم تتساقط ناطحات السحاب، بل لم يتوقف ٢٧ قطاراً فائق السرعة، وسارت الأمور وكأن شيئاً لم يكن. من يصدق ذلك؟ هنا تكمن معجزة الحداثة. وهذا ما عناه جان جاك روسو ضمنياً. ولكن منطقتنا، بما فيها تركيا وسوريا، ليست متقدمة ولا غنية كبلد كبير وجبار كاليابان. ولا تستطيع أن تضخ مئات المليارات من الدولارات في بناء المساكن المضادة للزلازل.

أخيراً، اسمحوا لي أن أتحدث عن زلزال آخر لا أحد يتحدث عنه. عنيت به الزلزال الطائفي والمذهبي الذي يخترق المنطقة منذ عقود، والذي دمرها أكثر من هذا الزلزال الأرضي الجيولوجي الأخير. فهل ستكون هذه الظروف العصيبة فرصة سانحة لمحاسبة الضمائر، وللتوقف عن الأحقاد والصغائر؟ هل يمكن أن تدفع الجميع إلى التقارب والتضامن والتآخي لمواجهة المصاب المشترك بدلاً من التباعد والكراهية، وكأننا لسنا شعباً واحداً في نهاية المطاف؟ هذا هو السؤال الذي يخطر على بالي في هذه اللحظة بالذات. ولكن أخشى ما أخشاه أن يكون الزلزال الطائفي الذي يكتسح المنطقة أقوى بكثير من زلزال الطبيعة وهيجاناتها وانفجاراتها!

عن صحيفة الشرق الاوسط

فولتير ومبادئ الحرّية والعدالة

عيسى مخلوف

نهاية الشهر الماضي، أعادت ألمانيا إلى فرنسا عشرة مجلّدات للفيلسوف الفرنسي فولتير بعد نهبها خلال الحرب العالميّة الثانية. وكانت هذه الكتب نُشرت بين ١٨٢٠ و١٨٢٣، وتشكّل جزءاً من مجموعة الأعمال الكاملة التي تتألّف من ٧٠ مجلّداً. بين الكتب التي استعادتها فرنسا، هناك ثلاثة كتُب مخصّصة للمسرح وكُتُب أخرى تُعنى بالتاريخ والسياسة، ومجلّد واحد يحتوي على مراسلات. النتاجات التي سرقها جيش الاحتلال لا تنحصر في كتب أدبيّة وفكريّة، بل تتضمّن أيضاً أعمالاً فنّيّة لعدد من الفنّانين التشكيليين، ومنهم، على سبيل المثال، الفنّان مارك شاغال. هذه الأعمال أُعيد جزء منها، وسيُعاد لاحقاً الجزء الآخر.

فولتير الذي عاش بين نهاية القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، هو أحد أعلام عصر الأنوار إلى جانب كلّ من جان جاك روسّو ومونتسكيو ودُوني ديدْرُو وغيرهم من الذين جمع بينهم هاجس أساسيّ: تمكين الناس من الوصول إلى المعرفة الحقيقية، وبلوغ الحرية، وتحقيق السعادة. ولقد شكّك هؤلاء الفلاسفة في أسس الدين، وتَحَدّوا المُلكية المُطلَقة، وطالبوا بالمساواة الاجتماعية، كما حاربوا العبوديّة باسم مبدأ المساواة وحقوق الإنسان.

عُرِفَ فولتير برؤيته الفلسفيّة التي ساهمت في تأسيس الحداثة الفكريّة وتركت أثرها الواضح في عدد من المفكرين الذين لمعت أسماؤهم إبّان الثورة الفرنسيّة. كان فولتير صاحب حسّ نقدي متّقد. انتقد استعمال الدين وتوظيفه لغايات هي أبعد ما تكون عن الدين، ووقف أيضاً ضدّ الكاثوليكيّة التي استفادت من دعم السلطة السياسيّة لها، وتواطأت معها على تشويه صورة العدالة. كتابه "زاديغ" عَكَسَ مبدأ العدالة كما حلم به التنويريّون. ولذلك التفتَ طه حسين إلى هذا الكتاب ونقله في العام ١٩٤٧ إلى اللغة العربيّة، وسمّاه "القَدَر". كتاب فولتير لا يقتصر على طرح فكرة القضاء والقدر، بل يذهب أبعد من ذلك من خلال طرح أفكار أساسيّة شغلت فلاسفة عصر الأنوار، ومنها فكرة العدالة وحكم العقل. وهذا ما أراد طه حسين إيصاله إلى القرّاء العرب، هو الذي كان يحلم بتحقيق حوار متكافئ بين الشرق والغرب، مدركاً أنّ مثل هذا الحوار لا يستقيم من دون الإيمان بالعلم والمعرفة وتفعيل العقل.

وكان من الطبيعي أن ينجذب الكاتب المصري إلى كتاب فولتير، فهو يتناول في قالب أدبي روائي رسائل بليغة في الحرية والديمقراطية والتسامح وحقوق الإنسان، وهذا أكثر ما يتوق إليه البشر الذين يبحثون عن موقع لهم تحت شمس العصر.

من المعروف أن طه حسين طاردته تهمة التكفير بسبب كتاباته الجريئة (خصوصاً كتابه "في الشعر الجاهلي") التي لم تسلّم بالفكر السائد غير العقلاني والقائم على الخرافات والغيبيّات. التجربة التي عاشها طه حسين مع التكفيريين، عاشها أيضاً كلّ من علي عبد الرازق (بسبب كتابه "الإسلام وأصول الحكم") وفرج فودة ونجيب محفوظ (بسبب روايته "أولاد حارتنا") ونصر حامد أبو زيد، وجميعهم جرت ملاحقتهم وتعرّضوا لتهمة التكفير. حين سأل المحقّق قاتل فرج فودة لماذا قتله، أجابه: "لأنه كافر"، وعندما طرح عليه سؤالاً ثانياً ليعرف منه في أيّ كتاب من كُتُب فودة وجد أنه كافر، ردّ المتّهم بأنه لا يجيد القراءة والكتابة، لكنّه كفّره نتيجة فتوى إحدى الجماعات الإسلامية وفتوى الشيخ محمد الغزالي.

لقد كرهَ فولتير في الأديان انعكاساتها السلبيّة التي تتمثّل في التعصّب، ورفض الاختلاف والتسامح، وادّعاء امتلاك الحقيقة. في القرن الثامن عشر كما الآن، في القرن الحادي والعشرين، المشكلة هي نفسها والتحدّي المطروح، على هذا الصعيد، لا يزال هو نفسه، خصوصاً في المجتمعات التي لم تفصل بعدُ بين الدين والسياسة.

نادى الفيلسوف الفرنسي بحريّة الرأي، وبالفكر المتسامح والمتعدّد، ضدّ الفكر الأحاديّ المستبدّ. ولذلك أشاد بالنموذج الإنكليزي الذي منح الحرّيات للمواطنين، بينما كان الفرنسيّون، آنذاك، ما زالوا محرومين منها. في إحدى رسائله المعروفة تحت اسم "رسائل فلسفيّة"، ورد الآتي: "لو كان في إنكلترا ديانة واحدة، لكان ذلك مبعث خشية وخوف من تَحَكُّم الاستبداد. ولو كانت هناك ديانتان اثنتان، لكانت الواحدة منهما ستقطع حنجرة الأخرى، لكن هناك ما يقارب الثلاثين منها وهي تعيش في سلام ووئام". التنوّع الديني والمذهبي في لبنان لا تنطبق عليه هذه النظريّة طالما أنّ مكوّنات المجتمع غير متصالحة في ما بينها، في ظلّ نظام طائفي يلغي المفعول الإيجابي للتعدّد.

عن نداء الوطن

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

هل عالمنا هو الأفضل؟... الخلاف الفكري بين ليبنز وفولتير

د. محمد عبد الستار البدري

هل نقبل واقعنا أم نرفضه لصالح ما يجب أن يكون الأفضل؟ إنه السؤال الذي يمكن الإجابة عنه بأشكال مختلفة في كافة مناحي الحياة سواء على مستوى الفرد أو الجماعة، وإجابته تعد الأساس الذي يُبنى عليه إما القبول بالواقع والخنوع للظروف القائمة وإما رفضها والعمل على التغيير، إنه في واقع الأمر مفترق الطرق الفكري والذي تناوله كثير من المفكرين والفلاسفة وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني ليبنز في القرن السابع عشر في محاولته للتوفيق بين الدين والعقل، فقد رأى أن الإنسانية تسير في تقدم مضطرد إلى الأفضل، فكان يرى أن عالمنا هو أفضل عالم متاح، مؤكداً أن الكمال للبارئ سبحانه ومن ثم فإننا كمخلوقات غير كاملين بطبيعة الحال لذا يظهر الشر والجهل والخطايا، والإنسان في رحلته الإنسانية العامة يقوم بتصحيح هذه الأخطاء تدريجياً مع الوقت.

ولكنِ الكاتب الفرنسي فولتير كان له رأيه المختلف تماماً، فلقد كان هذا السؤال هو المحور الرئيسي لروايته القصيرة «كانديد Candide»، والتي تعرض فيها لرحلات ومغامرات الشاب «كانديد» منذ أن طُرد من حياة الرفاهية في القصر لعلاقته بابنة خاله فانضمامه لجيش بروسيا ثم هروبه منه إلى البرتغال، حيث رأى مأساة الزلزال الشهير هناك آنذاك والآلام المختلفة التي خلفها، وهروبه إلى أميركا اللاتينية حيث تعددت سفرياته وخبراته مع المجتمعات المختلفة ولعل أهمها في مدينة «الدورادو» أو المدينة المثالية والتي لا عنف فيها وكل أمورها تدار بعقلانية شديدة فعلاقة الملك بالرعية مثالية إلى أقصى الحدود، ولكنه يتركها ويعود لأوروبا مع محبوبته إلى أن انتهى به المقام على البوسفور بعد أن طاف حول العالم ورأى المآسي الإنسانية والشر والعنف والقتل والرق إلخ.

حقيقة الأمر أنه لن يخفى على قارئ الرواية المقاصد الأساسية للكاتب، فلقد شن هجومه العنيف على كل شيء في القارة الأوروبية من دين إلى دولة إلى ساسة إلى الظروف الاجتماعية إلخ... ولكن ما يهم إبرازه هنا هو شخصية المعلم المحافظ «لكانديد» وهو بانغلوس، فكلما بدأ بطل الرواية في استكشاف العالم والمآسي المرتبطة به خرج علينا المعلم بجملته الفكرية والفلسفية الشهيرة والتي تناثرت في كل أنحاء الرواية «إنه العالم الأفضل من كل الخيارات الممكنة»، فبانغلوس يمثل في واقع الأمر رمزاً للهجوم على فكر ليبنز.

وبعيداً عن السجال الفكري بين ليبنز وفولتير فإن جملة بانغلوس هي جملة عابرة في حياتنا قد لا نلتفت إلى عمقها، فمن منا لم يقل هذا الجملة بأشكال مختلفة؟ فالتقدم البشري في شتى مناحي الحياة يجعلنا في مناسبات كثيرة نؤمن بأنه أفضل عالم متاح خاصة إذا ما قارناه بالماضي، فالعالم اليوم قد يكون أفضل مما كان من قبل، وبعد قرابة أربعة قرون من صدور الرواية، فإننا نجد أنفسنا أمام نفس الحوار الفكري، فهل نحن نعيش في أفضل عالم متاح؟ وهنا سنختلف، فبينما يرى فريق منا أننا نعيش في عالم مليء بالشر والمصائب والتي إن تحسنت في بعض جوانبها عبر الزمن والتقدم، إلا أن العالم يظل أقل مما يجب أن يكون عليه، وأن قبولنا بهذه النظرة المتفائلة إنما هو قدر من الانتقاص لإنسانيتنا وتطلعاتنا لمستقبلنا البشري الجماعي أو الفردي، فالقرن العشرون شهد أكبر مجازر الإنسانية ممثلة في الحروب عبر التاريخ، والأمراض ما زالت تفتك بنا، وتقديرات الكثير من المفكرين تشير إلى أن الفقر في زيادة مضطردة برغم تطبيق آليات السوق في أغلبية من بقاع العالم، والتناقض الأيديولوجي يفتك بنا، وأصحاب هذا الرأي يؤكدون أننا بالفعل في تقدم ولكنه غير كاف ولا ينسجم مع وتيرة النمو السكاني. بينما يدفع أصحاب الرأي الآخر بأن العالم اليوم أفضل مما كان عليه، فثورة العلم والاتصالات والطب وشتى مناحي الحياة وفرت للإنسان حياة بالتأكيد أفضل مما كان عليه من قبل، فالسلوك الإنساني اليوم أصبح أفضل والعالم يتجه نحو تقنين الخير بحيث لا نجعله مجرد رؤية إنسانية مجردة، والطب في تقدم يشفي الناس... فكيف لا نؤمن بمقولة بانغلوس؟

حقيقة الأمر أنني أجدني في حيرة من شأني مثل الكثيرين غيري الذين سيتفقون معي، فلو قبلنا هذه المقولة كدستور لحياتنا فإننا بلا شك سنكون مقصرين في حق مستقبلنا والأجيال القادمة، لأنها جملة تساهم في كبح جماح الطموح الإنساني ولن تفرز إلا الخنوع للواقع بل وفلسفته وتشريعه لنهيئ لأنفسنا قبوله. بالتالي فتقديري أن القبول الجزئي بهذه المقولة واجبٍ يحتمه تقدم الإنسانية، ولكنه ليس قبولاً مطلقاً للجملة، فلا بد من ترك المجال للتقدم الإنساني بالقناعة الثابتة بأن المسيرة الإنسانية في الواقع قاصرة بكل تأكيد، فحاضرنا ليس بالضرورة أفضل مما نسجه سابقونا في بعض المناحي، فالإنسانية في رحلتها من بداية الخليقة حتى اليوم لم تكتمل، وهو ما دفع الكثيرين للبحث عن مفهوم «المدينة الفاضلة» من «أفلاطون» إلى روايات الخيال العلمي في عصرنا الحديث.

وهنا تحضرني مقولة صديق لاتيني كلما استفسرت عن أحواله كان يقول لي: «أنا اليوم أفضل من الأمس وأسوأ من الغد»، فعسى أن يكون مستقبلنا أفضل من حاضرنا.

عن الشرق الاوسط